النقد العربي مفهومه وتطوره وجغرافيته

في المشرق والمغرب

أ- النقد والشعر

ب- الاحكام النقدية في العصر الجاهلي

1. نقد الشكل
2. نقد المعنى
3. نقد الموسيقى

ج- السمات العامة للأحكام النقدية

1. الذوق
2. الجزئية

د- المقاييس العامة للأحكام النقدية

1. الإيجاز
2. المثالية
3. المبالغة

31 جانفي 2021

جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي
كلية الآداب واللغات – قسم اللغة العربية وآدابها

النقد العربي مفهومه وتطوره وجغرافيته في المشرق والمغرب

قبل الحديث عن النقد الأدبي نود أن نلقي نظرة ولو خاطفة على الشعر العربي في العصر الجاهلي، وهذا لتشابه ظروف نشأتهما، ولصلتهما القوية ببعضهما، إذ متى وجد الشعر وجد النقد. لقد بلغ الشعر العربي في العصر الجاهلي أرقي مظاهر الصناعة الفنية والمعنوية، إذ نجد فيه قيما فنيه أصيله اتخذها الشعراء في مختلف العصور مثلا يقتدى في الجودة الفنية.

وفي الشعر العربي الجاهلي نجد من الإحساس المرهف الدقيق والشعور القوي ما مكنه من التعبير عن الحياة العربية في ذلك الوقت بكل مظاهرها من حل وارتحال وبحث عن مصادر الرزق في أطراف الجزيرة العربية، وما تخلل حياه القبائل من شقاق وخصومات ومنازعات، فقد استطاع الشعراء أن يعايشوا كل ما يضطرب في حياتهم أنئذ ويعبروا عنه في صناعة فنية رائعة قلما توفرت للخلف.

والملاحظة التي تستوقفنا هي أن هذا الشعر الذي بين أيدينا تام النضج لا أثر فيه للمحاولات الساذجة الأولى التي من صفاتها الخلل والضعف وكل ما من شأنه أن يعترض العمل الفني في بداية نشأته قبل أن تستقر قواعده وتثبت تقاليده.

فالقصيدة التي ورثناها عن العهد الجاهلي قصيدة ذات تقاليد فنية راسخة تتجلى في هيكلها العام الذي ينحو المَنحى الآتي:

1- المقدمة: وهي على شكلين:

أ- **مقدمة أساسية،** وهي التي يكثر دورانها في القصيدة دورانًا مفرطًا كمقدمه الأطلال والغزل والظعائن.

ب- **مقدمه ثانوية،** وهي التي ترد بين الحين والآخر كمقدمه الشيب و الشباب حيث يرسم الشاعر صورتين متقابلتين الصورة الأولى يظهر الشاعر فيها وقد قيدته الشيخوخة وأعاقته عن النشاط ثم ينعطف الى ذكر الشباب وما فيه من حيوية ونشاط ، كما نجد ضمن المقدمات الثانوية مقدمة الفروسية و تظهر فيها صورتان: صورة المرأة التي تأخذ في عذل زوجها وتبصيره بمهالك الأمور، وصورة الرجل الذي يسرف في الإنفاق والشجاعة وفي العادة لا يأخذ بنصائحها كما نجد أيضا المقدمات الثانوية

مقدمه الليل، الطيف، والخمرة هذا فيما يخص التقليد الأول الذي تتضمنه القصيدة الجاهلية.

2- أما التقليد الثاني فهو يتمثل في الرِّحلة وهي ذات شعب ثلاث:

1- **وصف الناقة** ويصرف الشعراء جهودهم الى الوصف الحسي ويقلون من الوصف النفسي أو الوجداني ويركز الشعراء على تصوير ضخامة الناقه أو رفع التماثيل العالية لها.

2- **وصف الصحراء** وهنا نجد بعض الشعراء يرسم لها صورا ناطقه بالرعب وبعضهم يتسع في وصفها مثل لبيد والبعض الآخر يرسم لها صورا خاطفة.

3- **مشاهد الصيد**: وهي تنقسم الى شعب:

أ- مشاهد الثور الوحشي وكلاب الصيد.

ب- مشاهد البقرة الوحشية وحمار الوحش.

ج- الظليم والنعامة.

3- أما التقليد الثالث والأخير، وهو الذي يمثل وجه القصيدة، فيتمثل في الغرض الأخير من القصيدة وقد يكون مدحا أو هجاء أو اعتذارا أو فخرا....

وقد نسج جميع الشعراء قصائدهم على منوال هذا الهيكل. بالإضافة الى ما يحتويه من سمات فنية في الصياغة والنظم.

فهذا الكيان الفني لا يمكن أن يوجد على هذه الصورة الكاملة إلا بعد تظافر جهود عدة أجيال من الشعراء على تكوينه الى أن جاء الجيل الأخير فوجد ضروب الشعر الفنية معبده أمامه.

ومن هنا يحق لنا أن نتساءل: ***أين البدايات الأولى للشعر العربي في العصر الجاهلي؟***

حاول الجاحظ أن يحدد لنا بداية الشعر الجاهلي فقال (كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال وكانت العرب تحتال في تقليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك ديوانها... وذهبت العجم على أن تقيد مآثرها بالبنيان.... ثم إن العرب أرادت أن تشارك العجم في البناء وتنفرد بالشعر.... وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه إمرؤلقيس بن حجر ومهلهل ابن ربيعه فإذا استظهَرنا الشعر وجدناه إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومئة عام وإذا استظهرناه بغاية الاستظهار فمئتي عام [1]).

يبدو من هذا النص أن الجاحظ قد حدد عمر الشعر الجاهلي بمئتي عام قبل الإسلام وهذا التحديد تجريدي قائم على المقارنة بين العجم والعرب تنقصه الأدلة المقنعة وقد رأى الدكتور نجيب البهبيتي أن عمر الأدب الجاهلي أطول مما حدده الجاحظ معتمدا في ذلك على أدله تاريخيه وفنية نريدها فيما يلي:

1- الأدلة التاريخية:

يقول الدكتور البهبيتي: (فليقظة العربية في الجزيرة العربية أقدام بكثير من ذلك الذي ضربه الجاحظ موعدا لمولد الشعر العربي في شبه الجزيرة العربية فإن صح أن القصيدة العربية كانت تقوم من الحضارة العربية مقام المعبد والأثر الضخم يبنيه المصري والأعجمي تخليدا لمآثره فالقصيدة العربية قديمه قدم الحضارة العربية والحق أن العرب لم يعتمدوا من أقدم عصور تاريخهم على القصيدة العربية فحسب كما وهم الجاحظ فمأرب وصنعاء ومعابد اليمن واليمامة..... كل أولئك أقدم بكثير من التاريخ الذي يضربه الجاحظ موعدا لمولد القصيدة العربية بصورتها المعروفة لنا اليوم [2])

2-الأدلة الفنية:

أما الأدلة الفنية: فهي مستمده من بنية القصيدة كما يقول البهبيتي (ثم إن النمو الطبيعي للقصيدة العربية أوزانها وموضوعاتها واللغة ونحوها وأساليبها وإيجازها يستدعي أن تكون مرت قبل زمن امرئ القيس بأطوار كثيره وتعثرات جمة حتى اكتمل لها هذا الشكل الذي نجدها عليه في شعرا امرئ القيس ومن سبقه أو جاء بعده [3]).

وإذا عدنا الى ابن سلام نراه يحدد هذه البداية بقوله:(كان أول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعه التغلبي في قتل أخيه كليب وائل قتلته بنو شيبان وكان اسمه المهلهل عُديا وإنما سمي مُهلهلا لهَلهلة شعره كهلهلة الثوب وهو اضطرابه واختلافه [4]).

يبدو أن ابن سلام كان يدرك أن البدايات الأولى للشعر لابد أن يكون فيها خلل وضعف ولذلك ظن أن اضطراب شعر المهلهل قد يعتبر أول بداية لتقصيد القصيد والواقع أن هذا الاضطراب قد وجد في غير شعر المهلهل وهذا الاضطراب قد لا يرجع سببه إلى الشاعر نفسه بقدر ما يرجع الى الرواة وما أصاب الشعر على أيديهم من خلط وتحريف وانتحال ولذلك لا يمكن الاطمئنان

الى رأيي ابن سلام في قضية التحديد لبداية الشعر لأن الخلل في شعر شاعر معين لا ينهض كدليل قوي لتعين بداية الشعر.

وبذلك لا يمكن أن نسلم لابن سلام بأن المهلهل هو الذي يمثل طفولة الشعر العربي وكذلك لم يقنعنا الجاحظ إذ حدد عمر الأدب الجاهلي بمئتي عام وقرن بداية الشعر بامرئ القيس ومهلهل بن ربيعه التغليبي فالشعراء أنفسهم أمثال امرئ القيس وعنترة العبسي وزهير بن أبي سلمى يشيرون الى الأجيال التي سبقتهم الى قرض الشعر.

فهذا امرؤ القيس يقول:

*عوجا على الطلل المحيل لعلنا *** نبكي الديار كما بكى ابن حذام*

ولقد علق ابن سلام عن ابن حذام الذي ذكره امرؤ القيس فقال: (وهو رجل من طيء لم نسمع شعره الذي بكى فيه غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس [5]).

إذًا امرؤ القيس يقر بأنه ليس هو البادئ الأول بالوقوف على الأطلال وهذا يعني أن هناك من وقف قبله وجاء امرؤ القيس فسار على نهجه كما نجد أيضا عنترة العبسي يؤكد قول امرئ القيس في السبق إلى الوقوف على الأطلال والبكاء عليها فيقول:

*هل غادر الشعراء من متردم ***أم هل عرفت الدار بعد توهم*

ويعني بهذا أن الشعراء الأوائل لم يتركوا له ما يقول حول الأطلال وفكرة السبق في القول نجدها أيضا عند زهير بن ابي سلمى إذ يقول:

*ما أرانا نقول الا معارا***أو معادا من لفظنا مكرورا*

فكأن زهيرا يريد أن يقول إن الجيل الأول لم يترك ليجيله ما يقول وبذلك أصبح جيله يعيد معاني القدماء.

معنى هذا أن الأدب المنتهي الينا لا يمثل مرحله النشأة الأولى للشعر بل يمثل مرحله رأس الهرم في سلم التطور الفني أما المرحلة الأولى من نموه فقد غابت عنا بانطمارها في كثبان الصحراء الرملية، وبذلك نقول إن طفولة الأدب الجاهلي لم يصلنا عنها شيء وقد ذهبت مع الجاهلية الأولى التي اشار اليها القران الكريم: **(وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى [6])** أما الشعر الذي وصلنا فهو نتاج الجاهلية الثانية التي حدد عمرها الجاحظ بمئتي سنة.

والفكرة التي ينبغي التأكيد عليها هي إذا لم نظفر بالمراحل الأولى لنشأة الشعر فليس معنى هذا أن الشعر الذي بين أيدينا يمثل البداية وفي الوقت ذاته يمثل النهاية، الفترة الزمنية غير كافيه لنضجه الفني هذا من جهة ومن جهة أخرى الظواهر الفنية لا تتكون نتيجة جُهد شخص أو أشخاص وإنما نتيجة جهود أجيال متعددة تتظافر في تكوينها وتطويرها وهذا لا يشين أدبنا إذا لم نعثر على بداياته الأولى، فالبدايات الأولى في كل الآداب مُحاطة بالغموض ولا يُهتدى فيها إلى الرأي القاطع.

والفكرة التي يجب أن تستقر في أذهاننا أن هذا الأدب الذي بين أيدينا لا يمثل سوى المرحلة المزدهرة من عمر الأدب العربي في العصر الجاهلي ولذلك لم نجد فيه الجانب التنظيري للشعر الذي نعتقد أنه قد صاحب المرحلة الأولى ومن آثاره التي بقيت ذلك الوعي الشعري في أوساط المجتمع الجاهلي وفي حديثنا عن النقد في العصر الجاهلي سنقف عند هذا الوعي الشعري لدى المجتمع في ذلك العصر.

قلنا فيما تقدم أن الشعر في العصر الجاهلي شعر ناضج ووصل به أصحابه إلى مرحله متقدمة من الصناعة الفنية والمعنوية ومن البديهي أن تسبق هذه المرحلة الفنية المتطورة مرحلة تثقيفية وتهذيبية حتى يصل الشعر إلى ما وصل اليه من إتقان وجودة في العصر الجاهلي الأخير.

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح إذا ما سلمنا أن العصر الجاهلي الذي يمتد زمنيا كما حدده الجاحظ يتضمن نشأة الشعر وتطوره هو، ***كيف استقام للشعراء أمثال امرئ القيس وغيره أن يقولوا كل هذه القصائد دون أن يُخِلوا باللغة والوزن والصناعة الفنية***، إذ أن أشعار هؤلاء لا نجد فيها أي مظهر من مظاهر النشأة الأولى وبذلك نعتقد أن أشعارهم هذه جاءت تتويجا لمرحلة سابقة كانت فيها محاولات وتجارب أولى قد تمثل النشأة الأولى للشعر.

وبهذا يمكن أن نقول: إنه بين هذا المستوى الفني المتطور ومرحلة النشأة الأولى مراحل طويلة الحَّ فيها النقد على تهذيب الشعر إلى أن وصل إلى هذا المستوى الجيد.

وهذه المرحلة التي قوَّم النقد فيها الشعر ضاعت شأنها في ذلك شأن بداية الشعر التي لم نعثر عليها فكما غابت عنا طفولة الشعر غابت كذلك طفولة النقد الأدبي ولم تصل إلينا الا اقوال متناثرة في المصادر النقدية وهي قليلة في حجمها بالمقارنة مع الشعر وقد يعود سبب قلتها الى طابعها النثري الذي لا يساعد على حفظها وبالتالي ضاع كثير منها وأهم ما عثرنا عليه من نقد في هذا

العصر يتمثل في وعي نقدي لدى المجتمع حتى أننا نكاد نقول: إن المجتمع هو الناقد الأول للشاعر قبل أن ينتدب أُناسا يعبرون عن موقفه من الشعر بعد أن استقر في ذهنه سداد رأيهم و نفاذ بصيرتهم لما لهم من خبره وتمرس طويل بالشعر فقد كان المجتمع يرضى بأحكامهم ويتخذها معيارا لتحديد منزلة الشاعر وميدان نبوغه وهذا ما كان مع النابغة فقد كانت أحكامه تحتل مكانة مرموقة في المجتمع التي كان يدلي بها في سوق عكاظ سرعان ما تنتشر وتعم أطراف شبه الجزيرة العربية ولعل من أسباب انتشار هذه الاحكام هو إيجازها.

وكما نعرف ان الإيجاز يساعد على حفظ هذه الأحكام النقدية وكما قال عمرو بن العلاء عندما سُئل (هل كانت العرب تطيل فقال نعم ليسمع منها وهل كانت توجز قال نعم ليحفظ عنها [7]) فالإيجاز إذًا هو الذي سهل انتشارها لما له من مساعدة على الحفظ إذ أن معظم الأحكام النقدية جاءت في قالب نثري موجز ولو كان مطولًا لكان من الصعب حفظها وانتقالها بين أفراد المجتمع.

وعلى العموم نقول إن طفولة النقد أو بدايته مجهولة لدينا وكل ما ظفرنا به هو هذا الوعي النقدي عند افراد المجتمع الجاهلي بالإضافة الى جملة من الاحكام النقدية الموجزة المنسوبة الى بعض الشعراء وهي على الرغم من قلتها وبساطتها لا تمثل الحلقة الأخيرة من سلسلة حلقات النقد بل نعتقد أنها سبقتها حلقات لم نتمكن من العثور عليها وهذا لا يدفعنا إلى القول مع القائلين بخلو العصر الجاهلي من كل مظاهر النقد الأدبي و أن كل ما هنالك مجموعة من الآراء النقدية أقل ما يقال فيها إنها أقرب إلى القصص الشعبي منها إلى النقد إذا نحن سلمنا بذلك نكون قد خالفنا طبائع الأمور.

---

1. الجاحظ الحيوان ج - 1 ص36-37.
2. الدكتور: نجيب البهبيتي - تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري - دار الفكر - الطبعة 4 - ص4.
3. المرجع نفسه: ص5.
4. ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء - تحقيق اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي - دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان - 1969 ص13.
5. المصدر نفسه: ص13.
6. سوره الاحزاب الآية 33.
7. ابن رشيق القيرواني: العمدة - تحقيق محمد قميحة - نشر دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - ص133.